الفصل الرابع والثلاثون

البهاء الأخير

١٧٧٤ – ٨٣

١ – ورثة العرش : ١٧٥٤ – ٧٤

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوى دفرانس ، الذى كان الإبن الشرعى الوحيد للويس الخامس عشر . وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكولا . وقد حاول التغلب على سمنته بالصيد، والسباحة ، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، واشتغال بالحرف اليدوية[١]. واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة ، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة ، وكان شديد الخجل من فسق أبيه . وقد أدمن القراءة ، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو ، وآمن بالرأى القائل « إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة »[٢]. وضن على نفسه برحلة خلال فرنسا ، لأن « شخص بجملته لايساوى ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير »[٣]. ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تحدر إلى ولده لويس السادس عشر .

أما زوجته ، مارى – جوزيف السكسونية ، المرأة الفاضلة الخلق ، القوية البدن ، فقد ولدت له ثمانية أطفال ، ومنهم لوى – جوزيف ، دوق برجنديه ، الذى قتل فى حادث عام ١٧٦١ ، ولوى – أوجست ، دوق بيرى ، المولود فى ٢٣ أغسطس ١٧٥٤ ، والذى سيصبح لويس السادس عشر ، ولوى – ستانسلاس ، كونت بروفانس ، المولود فى ١٧٥٥ ، والذى سيصبح لويس الثامن عشر ، ثم شارل – فليب ، كونت دارتوا ، المولود فى ١٧٥٧ ، والذى سيصبح شارل العاشر . فلما مات أبوهم عام ١٧٦٥ أصبح لوى – أوجست ، البالغ أحد عشر عاماً ، وارثاً للعرش .

وكان غلاماً عليلا ، جباناً خجولا ، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط . وكان كأبيه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء . وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق ، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه . وإذ كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه فى الرياضة والحرف . فتعلم الرماية بمنتهى الدقة ، ومنافسة الصناع فى استعمال يديه وأدواته . وقد أعجب بمهارات الصناع الذين يخدمون القصر ، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم ، واتخذ شيئاً من طباعهم وحديثهم . ولكنه أحب الكتب أيضاً . واستهواه فنيلون بنوع خاص ؛ وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة فى قصر فرساى ، وبمساعدة أخويه (وكانا فى التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره فى ١٧٦٦ بعنوان « حكم أخلاقية وسياسية مستقاه من تليماك » ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال « انظر إلى ذلك الولد الكبير ، سوف يكون القاضى على فرنسا وعلى نفسه ، ولكنى على أية حال لن أعيش حتى أرى ذلك »(٤) .

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً ؟ أيمكن العثور على زوجة منبهة له تهبه الشجاعة والأباء ، وتلد له ملوكاً من البوربون للمستقبل ؟ وأما الحاكم الحالى فكان فى شغل عن هذا بمدام دوبارى ، ولكن شوازيل وزير الخارجة تذكر أيامه التى قضاها فى بلاط فيينا ، وتذكر أرشيدوقة مرحة تدعى ماريا أنطونيا يوزيفا ، كانت آنئذ (١٧٥٨) فى الثالثة من عمرها ، فلعل زواجها من لوى — أوجست ينفخ روحاً جديدة فى ذلك الحلف النمسوى الذى أضعفه الصلح المفرد المبرم بين فرنسا وانجلترا (١٧٦٢) ، وكان الأمير فون كاونتز قد أسر بمثل هذه الأفكار للكونت فلور بمنت مرسى دارجنتو ، وهو نبيل من لييج ذو ثراء عريض وقلب طيب ، وكان سفيراً للنمسا فى فرساى . واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التى أجمعا عليها ، وأرسل (١٧٦٩) رسمياً إلى ماريا تريزا يطلب يد ماريا أنطونيا للوى — أوجست وأسعد الإمبراطورة أن تبارك اتحاداً كانت هى نفسها قد خططت له منذ أمد بعيد . وأما الدوفن الذى لم يؤخذ رأيه فى الأمر ، فقد

قبل طائعاً هذا الاختيار الذى رتب له . وحين أنبىء بأن خطيبته أميرة حسناء ، قال فى هدوء « ليتها حسنة الخلال »(٥) .

ولدت بفيينا فى ٢ نوفمبر ١٧٥٥ . ولم تكن بالطفلة الوسيمة . فجبينها مفرط الارتفاع ، وأنفها مسرف فى الطول والتدبب ، وأسنانها غير منتظمة ، وشفتها السفلى غليظة . ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق ، فتعملت أن تمشى مشية من ولدت لكى تكون ملكة ، وأعادت الطبيعة بأكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً ، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريرى ، وبشرتها الزنبقية الوردية ، وعينيها الزرقاوين العابثتين المتألقتين ، و « عنقها الإغريقى » على الأقل لقمة لذيذة لولى عهد ، ان لم تكن طبقاً شهياً لملك . وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتى يكبرنها قد هيأت لهن الامبراطورة بدهائها زيجات لينة : فماريا كرستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسونى ، الذى أصبح دوق ساكسى — تيشن ، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما ، ودأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلى . أما أخوهن يوزف فكان شريكاً فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقا لتسكانيا . فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا .

ولقد أهملت بعض الشيء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء ، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطاليا ، ولكنها لم تكن تحسن كتابة الألمانية ولا الفرنسية . أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً ، ولم تحرز فى الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها . وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدرى ، وبعث بالأب فرمون ليعجل بتعليمها . وكان تقرير فرمون عنها أن « خلقها وقلبها ممتازان » وأنها « أذكى مما كان يظن عموماً » ولكنها « على شيء من الكسل ، طائشة للغاية ، عسيرة التعليم . . . فهى لا ترغب فى التعلم إلا إذا سليت »(٧) ولكنها أحبت الرقص ، والعدو مع كلابها فى الغابات .

وكانت الإمبراطورة التى أضنتها الهموم عليمة بأنها تكل مصير الخاف لأيد أوهن من أن تضطلع بتبعة كهذه . وظلت طوال شهرين قبل ابرام الزواج المرتقب تأتى بماريا أنطونيا لتنام معها فى حجرتها . حتى تبث فى ابنتها فى جو أمسياتهما الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك . وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدى سلوكها فى الأخلاق والسياسة . وكتبت للويس الخامس عشر ترجوه أن يغضى عن مآخذ العروس العزيزة التى ستبعث بها لحفيده . أما ولى العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها :

« انى لآمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لى . لقد نشأتها لهذا ، لأننى توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشارك كل حظلك فى الحياة . لقد بثثت فيها حباً لواجباتها نحوك . . ومودة رقيقة ، وقدرة على أن تعرف وتمارس وسائل إدخال السرور على قلبك . إن ابنتى ستحبك ، وأنا واثقة من هذا ، لأننى أعرفها . . وداعاً يا دوفينى العزيز ، كن سعيداً ، وأسعدها . . . أن الدموع تفيض منى . . . أمك الحنون »(٨) .

وفى ١٩ ابريل ١٧٧٠ ، فى كنيسة الأوغسطينيين بفيينا ، عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن ، الخلية البال ، البالغة أربعة عشر عاماً ، على لوى — أوجست ولى عهد فرنسا ، واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن .

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و ٣٦٦ جواداً ولية العهد مروراً بقصر شونبرون ، وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير ، هامسة لها أن « تكونى كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأننى أرسلت لهم ملاكاً »(٩) . وضم الموكب ١٣٢ شخصاً — وصيفات ومصففات للشعر ، وخياطات . وأتباعاً ، وكهنة للقصر ، وجراحين ، وصيادلة ، وطباخين ، وخدماً ، وخمسة وثلاثين رجلا ليعنوا بالخيل التى كانت تبدل أربع مرات أو خمساً فى اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا . وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كيل على الرين قبالة ستراسبورج . وعلى جزيرة فى النهر استبدلت ماريا بثيابها النمساوية ثياباً فرنسية ، وتركها أتباعها النمسويون قافلين إلى فيينا ، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين ، وأصبحت ماريا

أنطونيا منذ الآن مارى أنطوانيت . وبعد الكثير من المراسم أدخلت ختراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة فى صبر ، فلما بدأ العمدة خطاباً بالألمانية قاطعته قائلة : « لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة ، فمنذ الآن لا أفهم لغة غير الفرنسية » وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر فرنسا .

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولى العهد مع كثير من الحاشية إلى كومبيين على اثنين وخمسين ميلا شمال شرقى باريس ليقابلوا موكب ولية العهد . ووصل الموكب فى ١٤ مايو . وقفزت العروس من مركبتها ، وجرت نحو لويس الخامس عشر ، وانحنت إلى الأرض ، وظلت كذلك حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة « لقد أصبحت عضواً فى الأسرة يا سيدتى ، لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر »[١٠]. وبعد أن قبلها على وجنتيها قدمها إلى ولى العهد، الذى قبلها بالمثل ولكن ربما بلذة أقل . وفى ١٥ مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساى . وهناك ، فى ١٦ مايو ، أكد زفاف رسمى ذلك الزفاف بالوكالة الذى عقد قبل شهر . فى تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة فى دار الأوبرا الجديدة ، ونبه الملك ولى العهد إلى أنه يفرط فى الأكل . فأجاب « إننى دائماً يحسن نومى بعد عشاء طيب» . وهذا ما حدث إذ أنه استغرق فى النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية .

وقد نام بهذه السرعة فى ليال متعاقبة ، وفى أصباح متعاقبة كان يستيقظ مبكراً لينطلق إلى صيده . وألمع مرسى دارجنتو إلى النمو السريع الحديث الذى طرأ على لوى — أوجست قد أخر تطوره الجنسى ، وأنه لا حيلة فى الأمر إلا الانتظار . وكتبت ماريا تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبئت بالموقف تقول « كلاكما صغير جداً ! أما أثر هذا على صحتكما فكله يعمل للخير . وسيكسبكما مزيداً من القوة »[١١] . وزاد بعض أطباء ولى العهد الطين بلة بأنبائه بأن الرياضة والطعام الطيب سيحفزان نموه الجنسى ، ولكن حدث العكس ، فقد جعلاه أكثر بدانة وميلا للنعاس . وأخيراً ، وفى أواخر عام

١٧٧٠ ، حاول ولى العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته ، ولكنه فشل ، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً مخيباً للآمال . وأبلغ كونت أراندا ، السفير الإسبنى ، مليكه بالآتى « يقولون إن عائقاً تحت القلفة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً » أو « أن القلفة سميكة جداً بحيث لاتستطيع التمدد بالمرونة اللازمة للانتصاب »[١٢] . واقترح الجراحون إزالة العائق بجراحة شبيهة بالختان ، ولكن ولى العهد رفض[١٣] وكرر محاولاته ، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته . وظل الموقف على الحال . وعمق إحساس ولى العهد بقصوره الزوجى شعوره بالنقص ، ولعل هذا الشعور شارك فى جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه .

وأغلب الظن أن سنى الإحباط الزوجى السبع هذه أثرت فى خلق مارى أنطوانيت وسلوكها . وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها ، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهى تجهل السبب . ومن ثم فقد آست نفسها بزيارات للأوبرا أو المسرح فى باريس ، وأسرفت فى لبس الثياب الفاخرة الغالية ، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله ، وآثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرة لامبال . وظلت طويلا تأبى الحديث إلى مدام دبارى ، إما لاشمئزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوى على الملك .

وفى ١٠ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر . واندفعت الحاشية إلى مسكن ولى العهد . فوجدوه هو وولية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان . وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكى « اللهم احمنا ! فنحن أصغر من أن نحكم ! » وقال لصديق ، « يا له من عبء ! إننى لم أتعلم شيئاً ، وإنى لأشعر كأن الكون سيسقط فوق »[١٤] . وفى جميع أرجاء فرساى وباريس ، ثم إلى أبعد ماسرى النبأ فى فرنسا ، هتف الرجال والنساء « مات الملك ، يحيى الملك ! » وكتب باريسى متفائل على تمثال لهنرى الرابع هذه الكلمة « قام »[١٥] ، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينقذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة .

٢ — الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة ؟ إنها لم تبلغ فى إستبدادها مابلغته حكومة بروسيا ، ولا فى فسادها ما بلغته حكومة انجلتره ، وكان جهازها البيرقراطى وإدارتها الإقليمية يضمان نفراً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء . ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون فى أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادى والفكرى . ونشبت الثورة فى فرنسا بأسرع مما نشبت فى غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأواً من الذكاء أبعد مما بلغته فى أى أمة معاصرة أخرى ، وفرض فكر مواطنيها اليقظ المتنبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أى حكومة فى ذلك العصر أن تلبيه .

وكان فردريك الثانى ويوزف الثانى ، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة ، قد أدخلا فى الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدراً من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً فى بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين . « واستشرى الاضطراب والفوضى فى كل مكان »(١٦) ، ففى فرساى تنازع مجالس الملك فى اختصاصه مع الوزراء ، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها ، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفق بين سياساتهم . وانقسمت الأمة فى ناحية إلى دوائر Bailliages أو Senechaussees فى مجال القضاء ، وفى أخرى إلى أقسام مالية (geanéralités) فى المالية ، وفى ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) فى الجيش ، وفى رابعة إلى أبرشيات paroisses وأقاليم provinces فى الكنيسة . وفى كل قسم مالى كان الناظر الملكى يصطدم بالحاكم و « البرلمان » الإقليمى . وفى جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع مع الفقراء ، والنبلاء مع البورجوازيين ، والبرلمانات مع الملك ، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة ، ولم تتوفر القضية إلا فى ١٧٩٢ ، ولا الإرادة إلا فى ١٧٩٩ .

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ، ومع ذلك كان القضاة من أفضلها . واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى ، وشمالها القانون العام والإقطاعى . يقول دتوكفيل « إن العدالة كانت معقدة ، مكلفة ، بطيئة »[١٨] — رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد . وكانت السجون قذرة ، والعقوبات وحشية ، والتعذيب القضائى ظل مسموحاً به فى ١٧٧٤ . وكان القضاة غير قابلين للعزل ، منصفين غير قابلين للرشوة عادة . وقد ذهب السر هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا « من حيث جميع الصفات المطلوبة فى المحامى ، والقاضى ، والمشرع ، يبزون كثيراً نظراءهم فى طول أوربا وعرضها »[١٩]. وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة ، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء . ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية ، واختير أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء فى برلمان باريس . وما وافى عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة « نبلاء الرداء القضائى » — أى القضاه الوراثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلا لطبقة « نبلاء السيف » فى الكرامة والاستحقاق . ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا فى إحدى الطبقتين الاستقراطيتين .

كان من رأى مونتسكيو أن « الهيئات الوسيطة » بين الملك والشعب هى كوابح مفيدة على السلطة الأوتقراطية ، وحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضى والقضاه ولكى تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أى مرسوم ملكى ، أو رفضه حسبما يتفق فى رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة . وأعربت عدة برلمانات إقليمية ، خصوصاً برلمانات جرينوبل ، وروان ، ورين ، عن مبادىء شبه ديمقراطية ، أحياناً بعبارات مقتبسة من روسو عن « الإرادة العامة » و « الموافقة الحرة للأمة » ، من ذلك أن برلمان رين أعلن فى ١٧٨٨ « أن الإنسان ولد حراً ، وأن الناس فى الأصل متساوون » ؛ و « أن هذه الحقائق ليست فى حاجة إلى إثبات »[٢٠]، على أن البرلمانات كانت بوجه عام المدافع القوى عن فوارق الطبقات وامتيازاتها . وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية فى الإعداد للثورة ، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم ، وسقطت بسقوطه .

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة . فالملك وفقاً للتقليد البوربونى هو المشرع الأوحد ، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية ، وهو المحكمة العليا ، فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أن شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته ، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه . وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة ، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها . فى ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسرة المالكة و ٨٨٦ نبيلا ، هم ونساؤهم وأبناؤهم ، يضاف إليهم ٢٩٥ طاهياً ، و ٥٦ صياداً ، و ٤٧ موسيقياً وثمانية معماريين ، وأشتات من السكرتيرين ، وكهنة القصر ، والأطباء والسعاة والحراس . . . ، يبلغون فى مجموعهم ستة آلاف شخص ، مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب . وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص ، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين ، أمثال أمير كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بوربون . واحتفظ الملك بعدة قصور — فى فرساى ، ومارلى ، ولا مويت ، ومودون ، وشوازى ، وسان — أوبير ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وكومبيين ، ورامبوييه . وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر ، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام ، وفى ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ جنيهاً [٢١] .

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة ، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطه ؛ من ذلك أن المسيو أوجار — وكان سكرتيراً فى إحدى الوزارات — لم يجاوز راتبه تسعمائة جنيه فى العام ، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة . وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرءوسوهم ، مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين فى العام[٢٢] . وأجريت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم[٢٣] . وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التى أعسرت ، وأن يقدم المهو لبنات النبلاء عند زواجهن . وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه فى العام . وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه فى العام ، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه . كل هذا السفه فى الإنفاق ، وكل هذه المعاشات ، والهبات ، والرواتب ، والمناصب الشرفية ، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية . وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملته خمسون مليون جنيه فى العام — وهو عشر مجموع إيراد الحكومة [٢٤] .

٣ — الملكة العذراء

وكانت مارى انطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً . ذلك أنها وقد ارتبطت بزوج عنين ، وحرمت الرومانس ، ولم تشغلها علاقات غرامية ، راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالى من الثياب ، والجواهر ، والقصور ، والأوبرات ، والمسرحيات ، والمراقص . وكانت تخسر الثروات فى القمار ، وتهب الثروات للمحاسيب فى كرم متهور . وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها فى عام واحد (١٧٨٣)[٢٥] ، وأتاها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة « المباهج الطائشة » أو « العلامات المكبوته » أو « الرغبات المقنعة »[٢٦] . وكان مصففات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها ، وقد قررت هذه « التسريحة العالية » ، كما قررت معظم الأشياء التى ابتدعتها ، زى نبيلات البلاط ، فزى باريس ، فزى عواصم الأقاليم .

أما شغفها بالحلى والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً . ففى ١٧٧٤ ابتاعت من بومر ، وهو الجواهرى الرسمى للتاج ، أحجاراً كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه[٢٧] . وأهداها لويس السادس عشر طقماً من العقيق ، والماس والأساور ، ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيه [٢٨] . وفى ١٧٧٦ كتب مرسى دارجنتو إلى ماريا تريزا يقول : « مع أن الملك أعطى الملكة فى شتى المناسبات ما يساوى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ « ايكو » من الماس ، ومع أن جلالتها تملك

الآن مجموعة هائلة ، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من بومر . ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم فى الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها — وإن أجرت الصفقة فى حذر مخفية أمرها عن الملك »(٢٩) .

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم ، واكتفت الملكة بالتزين بحليها فى المناسبات الرسمية فقط ، ولكن الشعب لم يغتفر لها قط هذا التبذير المفرط فى ضرائبه ، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة .

أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف فى زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها ، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسى . فدفع لها ديون القمار التى استدانتها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس ، وإن علم أن مرحها المعلن على الملأ يزعج شعباً ألف فى ملوكه الوقار والحشمة ، ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية ، وحفلتى رقص ، وعشائين رسميين فى البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً ، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المقنعة فى باريس أو فى البيوت الخاصة ، لقد كانت هذه السنوات ١٧٧٤— ٧٧ فترة تبديد وإسراف على حد قول أمها بصراحة . وإذ كانت الملكة لا تجنى من وراء مغازلات زوجها فى الليل سوى الرغبة توقظ دون إشباع ، فقد شجعته على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله . وكانت زاهدة فى الأدب ، واهتمامها بالفن قليل ، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى ، وكانت تجيد الغناء والتمثيل وتعزف على الهارب ، وتؤدى بعض صوناتات موتسارت على الكلافيكورد (٣٠) .

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً — ذلك هو التبذير الطائش نتيجة للسأم والإحباط ، ولطفولة وصبى ألفا الترف وجهلا الفقر . وقد زعم الأمير لين (الذى ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية ، وأن خسائرها فى القمار بولغ فيها ، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش[٣١]. وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها نمساوية ، ولم يكن الحلف مع النمسا من قبل محبوباً على الإطلاق . وكانت مارى أنطوانيت ، التى لقبت بـ « النمساوية » تجسيداً للملك الحلف ، وقد اشتبه الفرنسيون ، ولهم بعض الحق ، فى أنها تخدم المصالح النمساوية ، على حساب فرنسا أحياناً . ولكن حتى مع هذا ، فإن حيويتها الشابة ، ومرحها ورقة قلبها ، كلها كسبت قلوباً كثيرة . حدث مرة أن جاءت مدام فيجيه — لبرون ، الحبلى منذ شهور كثيرة ، لتصورها (١٧٧٩) ، وبينما كانت المصورة كاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان ، وللتو قالت لها الملكة ألا تنحنى ، « لأنك بعيدة جداً عنها » ثم التقطت بنفسها الأنابيب[٣٢]. وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة . ولكنها أحياناً ، فى مرحها الطائش كانت تضحك من لازمات غيرها أو عيوبهم . وكانت تستجيب بغاية السرعة لكل رجاء ، « أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام لكل دافع كريم »[٣٣] .

مثل هذه المخلوقة المفعمة حيوية ، والتى كانت الحياة والحركة عندها مرادفين ، لم تخلق لخطو مراسم البلاط ، ذلك الخطو البطىء الحذر . وسرعان ما تمردت عليه ، والتمست البساطة واليسر فى البتى تريانون وحوله ، وكان على ميل من قصر فرساى . وفى ١٧٧٨ أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتقى ملكاً خالصاً لها ، تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها ، ووعد لويس أنه لن يتطفل عليهم إلا إذا دعى . ولما لم يكن فى المبنى غير غرف ثمان ، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخططت لها الحدائق المحيطة به على النمط « الطبيعى » — ممرات ملتفة ، وأشجار منوعة ، ومخابىء ، وجدول حمل إليه الماء فى أنابيب من مارلى بتكلفة غالية . ولاستكمال حلم روسو فى العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثمانى مزارع صغيرة فى الحديقة الملاصقة ، لكل منها كوخها الريفى ، وأسرتها الفلاحة ، وكوم سباخها ، وأبقارها . هناك كانت تقلد راعيات الغنم فتلبس عباءة بيضاء ،

ومنديلا لن الشاش ، وقبعة من الخوص ، وكانت تحب أن ترى اللبن يحلب بالملاطفة من خير الضروع فى آنية من برسلان سيفر . وكانت هى وأصدقاؤها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيتى تريانون ، وعلى الخمائل يولمون الولائم للملك أو لكبار الزوار . وهناك وفى القصر الملكى أيضاً . كانت الملكة تخرج المسرحيات التى تلعب أدواراً هامة فى بعضها — كدور سوزان فى « زواج فيجارو » . ودور كوليت فى « عراف القرية » فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها .

فلما خشيت تقول المتقولين إن هى أسرفت فى حرية الاختلاط بالرجال ، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الوثاقة ما وجه النميمة وجهة أخرى . فجاءت أولا مارى — تريز وسافوا — كارنيان ، أميرة لامبال ، الرقيقة ، الحزينة ، الهشة . وكان قد انقضى عليها سنتان فى ترملها مع أنها لم تجاوز الحادية والعشرين . وكان زوجها — وهو ابن دوق بنتييفر حفيد لويس الرابع عشر — يعاشر الخليلات ويختلف إلى المومسات بعد زواجه بقليل . فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته فى تفصيل مقزز . ولم تفق قط من المحنة الطويلة التى ابتلاها بها ذلك الزواج ، وظلت تعانى من التقلصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقها ارباً جمهور من غوغاء الثورة فى ١٧٩٢ — وانعطفت مارى أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر ، ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً . فتلقاكما كل يوم ، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين فى اليوم أحياناً . وفى أكتوبر ١٧٧٥ عينت الأميرة مشرفة على بيت الملكة ، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه . ثم كان للأميرة أقرباء وأصدقاء ، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة . وعن طريقها لدى الملك ، لنيل المناصب أو الهبات . وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها تذبل واتخذت صديقة أخرى .

وكانت هذه الصديقة الجديدة . واسمها يولاند دبولا سترون زوجة الكونت جول دبوليناك ، عريقة المنبت رقيقة الحال ؛ كانت حلوة ، صغيرة الجسم ، طبيعية . وما كان أحد ليخامره الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

للمال الذى أيأس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة فى صحبتها الظريفة . فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لاموييت ، وهى فيلا ملكية بقرب قصر فرساى ، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً . فلما أصبحت الكونتيسة أما لم تضن عليها الملكة بشىء ، : ٤٠٠,٠٠٠ جنيه لتسوية ديونها ، ومهر لابنتها قدره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وسفارة لأبيها ، ومال ، وحلى ، وفراء ، وتحف فنية لشخصها ، وأخيراً (١٧٨٠) دوقية وضيعة بيتش ، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً . وقال مرسى دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل ، وأن الدوقة الجديدة لاتبادلها محبتها ، واقترح على الملكة ، التى وافقت على اقتراحه ، أن تطلب إلى مدام دبولنياك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروى الذى كانت انطوانيت تمقته ، فأبت المدام ، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى . وهكذا انضم آل بولنياك إلى صفوف أعدائها ، وأصبحوا مصدراً للافتراءات التى لوثت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة .

وكان كل شىء تقريباً تأتيه يخلق لها الأعداء . فأفراد الحاشية يتحسرون على الهبات التى تغدقها على محاسيبها ، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم ، وشكوا من أنها أكثرت الغياب عن مهامها فى البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاءها وقل الإقبال على حضورها . ولامها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامها القديم بالثياب الغالية ، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملبس . وقالوا أن هذا نذير بإفلاس تجار الحرير فى ليون وخياطى باريس [٣٤] . وكانت قد أقنعت الملك بإقالة الدوق دجيون (١٧٧٥) الذى تزعم أنصار مدام دوبارى ، وكان للدوق متعاطفون كثيرون ، كونوا نواة أخرى من الأعداء . وبعد عام ١٧٧٦ شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه [٣٥] — وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية [٣٦] ، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخليلة ، فى وقت أو آخر ، لكل ذكر موجود فى فرساى [٣٧] . وقد تساءلت كراسة عنوانها « تأنيب للملكة » . كم مرة تركت فراش الزوجية وقبلات زوجك لتسلمى نفسك للباخوسيات أو السواطير ولتندمجى معهم فى متعهم الوحشية ؟ » [٣٨] .

وصورت كراسة أخرى تبذيرها بوصف حائط فى البتى تريانون زعمته مكسوا بالماس[٣٩] . واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التى وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨ « إذا لم يكن لديهم خبز فليأكلوا كعكاً » ، ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية[٤٠] ، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب . وأشد وأنكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر . تقول مدام كمبان الوصيفة الأولى لمخدع الملكة :

« حين ولد ابن للكونت دارتوا عام ١٧٧٧ ، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته ، مؤكدات حقهن فى الدخول إلى القصر الملكى فى مناسبات الولادات الملكية ، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هى ، لا سلفتها ، أن تأتى بورثة للتاج الفرنسى . وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات . واعتكفت فى حجرتها معى تندب حظها التعس »[٤١] .

فأنى لها أن تشرح للشعب أن الملك عنين ؟

وانتظرت فرنسا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتى ويزيل هذه العقدة . وفى ابريل ١٧٧٧ وصل يوزف الثانى فرساى متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين . ووقع فى غرام الملكة ، وقال لها « لو لم تكونى أختى لما ترددت فى أن أتزوج ثانية ليكون لى رفيق ساحر مثلك »[٤٢] ، ثم كتب لشقيقهما ليوبولد يقول :

« لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة ، دون أن ألحظ مرور الزمن . . . أنها امرأة ساحرة نبيلة ، مازالت صغيرة بعض الشىء ، طائشة قليلا ، ولكنها فى صميمها كيسة فاضلة . . كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشتانى ، واستجابتها الأولى صائبة دائماً ، ولو أنها أطاعتها . . . واهتمت اهتماماً أقل بالقيل والقال . . . لبلغت مرتبة الكمال . ولها رغبة قوية فى متع الحياة ، ولما كانت ميولها معروفة ، فإن ضعفها يستغل . .

« ولكنها لاتفكر إلا فى متعتها ، ولا تحب الملك ، وقد ثملت بإسراف

هذا البلد . . . وهى تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها . . . فهى باختصار لاتؤدى واجبات الزوجة أو الملكة »(٤٣) .

وقد أوضحت السبب فى أنها والملك ينامان فى حجرتين منفصلتين ، فهو يحب النوم مبكراً ، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية . وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً . وكتب لليوبولد يقول « هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله . فله أفكار وحكم سديد ، ولكن عقله وجسمه فاتران . وهو يتحدث بشكل معقول ، ولكن ليس به رغبة فى التعلم ولا حب للاستطلاع . والواقع أن لحظة « انطلاق النور » لم تأت بعد ، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل »(٤٤) . وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به ، فأشار إلى أن العائق فى قلفة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة ، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء ، ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح .

وقبل أن يغادر يوزف فرساى كتب ورقة « تعليمات » للملكة . وهى وثيقة جديرة بالتنويه .

« إنك تكبرين ، ولم يعد لك عذر من صغر السن . فما مصيرك إذا أخرت (صلاح أمرك) أكثر من هذا ؟ . . فحين يعانقك الملك ، وحين يتحدث إليك ، ألا تبدين الضيق ، بل حتى النفور ؟ هل خطر ببالك يوماً أى أثر لا بد أن تخلفه فى الشعب . . . علاقاتك الحميمة وصداقاتك ؟ . . . هل وزنت النتائج الرهيبة لألعاب الحظ ، وما تجمع من أصحاب وما يضربونه من مثل ؟ . . . » .

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية فى باريس :

لم الاختلاط بحشد من الفاسقين ، والمومسات ، والأغراب ، تستمعين إلى ملاحظاتهم ، وربما تبدين مثلها ؟ يا له من تبذل ؟ . . . إنك تتركين الملك وحيداً الليل كله فى فرساى بينما تندمجين فى المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين؟ إننى فى الحق أرتعد خوفاً على سعادتك ، لأن هذا لا يمكن أن

يؤول إلى خسيرك فى المدى الطويل ، وستنشب ثورة قاسية ما لم تتخذى الخطوات لتجنبها »[٤٥] .

وتأثرت الملكة من لومه . فكتبت إلى أمها بعد رحيله : « لقد ترك رحيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملأه ، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام . ولكن الشيء الذى لن يكون حلماً عندى هو كل النصيحة الحكيمة . . . التى بذلها لى ، والتى نقشت على صفحة قلبي إلى الأبد »[٤٦]. على أن الذى أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة . ذلك أن لويس استسلم فى ذلك الصيف من عام ١٧٧٧ ، ودون مخدر من أى نوع فيما يبدو ، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً . واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (٢٣ أغسطس ١٧٧٧) باستكمال علاقته الزوجية فى النهاية . وكان فخوراً سعيداً . وأسر لعمة عذراء قائلا « أننى أستمتع كثيراً بهذه اللذة ويؤسفنى حرمانى منها هذا الزمن الطويل »[٤٧]. على أن الملكة لم تحبل إلا فى ابريل ١٧٧٨ . وأنهت النبأ إلى الملك بطريقتها المرحة : « مولاى ، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذى بلغت به الجرأة أن يرفسنى فى بطنى »[٤٨] . فلما أدرك لويس المعنى الذى ترمى إليه ضمها بين ذراعيه . وراح الآن أكثر من أى وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنحها كل سؤل لها . وكان يزور مسكنها عشر مرات فى اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب . وقالت مارى أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدى ونفسى غامض « منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التى عشتها من قبل . أريد أن أحيا حياة أم ، وأرضع طفلى ، وأكرس نفسى لتربيته »[٤٩] .

وبعد معاناة شديدة ، زادتها شدة قابلة تفتقر إلى المهارة ، وضعت الملكة فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٨ وأسف الوالدان على أن الوليد بنت ، ولكن أسعد الملك أن مغاليق الحياة فتحت ، وكان على ثقة من أن الإبن قادم فى الوقت المناسب . أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها فى نهاية المطاف . وكتبت لماريا تريزا فى ١٧٧٩ (وكانت الأم فى بداية عامها الأخير) تقول : « لماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكى . وإذا

كنت ملومة فى الماضى ، فالسبب أننى كنت غرة طائشة . أما الآن فإننى أكثر تعقلا ، وأنا شديدة الوعى بواجبى »[٥٠]. ولم يصدق البلاط ولا الشعب ، ولكن — كما كتب الكونت سيجور « من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً ، وتشغل نفسها على نحو جاد . وهى أشد حرصاً على تجنب أى شىء من شأنه أن يثير القيل والقال . . . وحفلاتها المرحة أقل عدداً ، وأقل صخباً . . . والإسراف يخلى مكانه للبساطة ، والأرواب الفاخرة تحل محلها الفساتين التيلية الصغيرة »[٥١] . ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذى عوقبت به مارى أنطوانيت أن شعب فرنسا أبى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهترة قد غدت أما حنوناً حية الضمير . فلا شىء يضيع هباء ، ولكن كل شىء لابد أن يدفع ثمنه .

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسى يحرم النساء من العرش . لذلك رحبت بالحمل الثانى ، وتمنت على الله ولداً . ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها[٥٢] . ولكنها كررت المحاولة ، وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت غلاماً سمى لوى — جوزف — زافير . وتشكك الساخرون فى نسب الطفل ، ولكن الملك السعيد ضرب عنهم صفحاً وصاح « ولدى الدوفن ! ولدى ! » .

٤ — الملك الطيب (٥٤)

كان لويس النقيض لزوجته فى كل شىء إلا السن . كانت رشيقة ، سريعة الخاطر ، خفيفة الحركة ، لعوبا ، مندفعة ، جياشه ، طائشة ، مسرفة ، مؤكدة لذاتها ، متكبرة ، ملكة دائماً ؛ وكان بطىء الحركة ، بليداً ، متردداً ، رزيناً ، هادئاً ، كادحاً ، مقتصداً ، متواضعاً ، عديم الثقة بنفسه ، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً . كان يحب النهار ، وعمله ، وصيده ، وكانت تهوى الليل ، ومائدة القمار ، والمرقص . ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج التعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك ، فقد كانت الملكة وفية لزوجها ، والملك شغوفاً بزوجته ، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما فى شخص واحد .

كانت قسماته سوية ، ولعله كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه . وكان طويل القامة ، خليقاً بأن يكون له سمت الملوك لولا أن شاب مشيته كتفان متأرجحتان وخطوة ثقيلة . وكان يشكو ضعفاً فى بصره زاده ارتباكاً وثقل حركة ، وندر أن كان شعره منتظماً . ذكرت مدام كمبان أن « شخصه كان مهملا جداً »[٥٤] وكان مفتول العضـــل قوى البدن ، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة . وكان نهما ، معتدلا فى شرابه ، ولكنه كان أحياناً يثمل بالطعام ، فيقتضى الأمر إعانته على الذهاب إلى فراشـــه[٥٥] . وكان له هوايات قليلة ، ونشوات طرب قليلة ، وساعات ألم مفرط قليلة .

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به ، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة فى الحديث ؛ على أنه فى أحاديثه الخاصة وقع موقعاً طيباً من رجال كيوزف الثانى بفضل سعة معرفته وسداد حكمه ؛ استمع إلى الأمير هنرى البروسى ، شقيق فردريك الأكبر يقول :

« إن الملك أدهشنى . . . فلقد أنبئت أن تعليمه قد أهمل ، وأنه لايعرف شيئاً ، وأنه قليل الذكاء . ولكنى ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً ، وان له أفكاراً صائبة فى السياسة ، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة فى فكره ، وأنه يفيض بالإدراك السليم الذى هو فى الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع . ولكنه كان مسرفاً فى عدم الثقة بنفسه »[٥٦] .

وكان لويس يقتنى مكتبة حسنة أفاد منها ، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »[٥٧] ، ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعته المعارضة للمسيحية . وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون « تاريخ التمرد » كأنه يحس فى دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول ، قال « لو كنت فى مكانه لما امتشقت الحسام قط فى وجه شعبى »[٥٨] . ولكى يرشد رحلة بيروز الباسفيكية (١٧٨٥) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم[٥٩] . وكان على صلة وثيقة بمختلف وزرائه

لا سيما فى الشئون الخارجية . وأعجب واشنطن وفرانكلن بسداد حكمه[٦٠] . وكانت نواحي ضعفه فى الإرادة فى الفكر ، ولعلها ارتبطت بثقل غذائه ووزنه . ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ . وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد ، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين ، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات الألوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته .

على أن الفضائل لم تعوزه . فهو لم يتخذ خليلة ، وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء طورجو « أغلب الظن أنه لم يفقه غير طورجو من رجال جيله فى حب الشعب أعظم الحب »[٦١] . ففى يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع ٢٠٠,٠٠٠ فرنك على الفقراء ، وأضاف « ان وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذه من راتبى »[٦٢] . وقد منع جمع « ضريبة التتويج » التى كانت تجعل من استهلال حكم الملك عبئاً جديداً على الأمة . وفى ١٧٨٤ حين كانت باريس تعانى من الفيضانات والأوبئة ، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب . وخلال شتاء قارس البرد سمح للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيبوا منه طعاماً . وكان مسيحياً لقباً ، وواقعاً ، والتزاماً بالشعائر ، فكان يتبع كل طقوس الكنيسة وقواعدها بحذافيرها ، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام . وكان متديناً دون تعصب أو إعلان عن النفس ، فهو الذى منح الحقوق المدنية لبروتستنت فرنسا رغم سنيته وتدينه . وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم ، وذلك أمر ليس فى الدنيا أصعب منه .

وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهراً رغم حبه للبساطة ، فيجوز مراسم استيقاظ الملك levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه ، ويتلو صلوات الصباح فى حضرتهم ، ويستقبل الناس ، ويرأس المجلس الملكى ، ويصدر المراسيم ، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء ، والاستقبال ، والرقص — مع أنه لم يكن يرقص . ولكنه عاش كأى مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشهيته . وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية ، فتعلم عدة حرف ، من صناعة الأقفال إلى البناء . وتخبرنا

مدام كمبان أنه « سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص ، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال ، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة فى حضرتى »[٦٣]. وكان يستهويه كل شىء يتصل بالبناء ، فيعين عمال القصر على نقل المواد ، والعوارض ، وبلاط الرصف . وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم فى مسكنه بيديه هو ، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس . وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا ، والكرات الأرضية ، والخرائط الجغرافية — التى رسم بعضها بنفسه ؛ واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل فى الخشب ، وجهزت ثالثة بكير وسندان ، وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية . وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين . وشغلت مكتبته عدة حجرات .

وقد أحبته فرنسا ، حتى إلى موته وبعد موته ؛ لأن الذى أعدمه بالجليوتين فى ١٧٩٣ لم تكن فرنسا بل باريس . فى تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً . كتب فردريك الأكبر لدالامبير « أن لديكم ملكاً طيباً جداً ، وأنا أهنئكم عليه من كل قلبى . فالملك الحكيم الفاضل خليق بأن يخشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة » . وأجاب دالامبير « انه يحب طيبة القلب ، والإنصاف ، والاقتصاد ، والسلام . . . انه بالضبط ما كان ينبغى أن نصبو إليه فى ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدر كريم »[٦٤] . ووافق فولتير على هذا الرأى : « كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حببه لفرنسا »[٦٥] . وقد استعاد جوته فى شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون : « فى فرنسا أبدى ملك جديد خيرّ أحسن النوايا . لتكريس نفسه للقضاء على مفاسد كثيرة ، ولتحقيق أنبل الأهداف ، وهى إدخال أسلوب فى الاقتصاد السياسى منتظم وكفء ، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية ، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما . وقد عمت الدنيا أبهج الآمال ، ووعد الشباب الواثق نفسه والنوع الإنسانى كله بمستقبل زاهر مشرق »[٦٦] .

٥ — وزارة طورجو : ١٧٧٤ — ٧٦

كان أول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية . وكان الشعب يطالب في إلحاح بعودة « البرلمانات » التي أقصيت ، فأعادها ، وأقال موبيو الذي حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى ، ورد إلى فرساي لرآسة وزارته جان — فردريك فليبو ، كونت موريبا ، الذي كان وزيراً للدولة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٩ ، وأقيل لأنه عرض في أهجوة ساخرة بمدام دبومبادور ، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين . وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق ، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على ضيعته الريفية ، كان قد فقد صلته بتطور فرنسا في اقتصادها وفكرها ، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة . أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافييه ، كونت دفيرجين ، ولوزارة الحربية الكونت كلود — لوى دسان — جرمان ، ولوزارة البحرية آن — روبير — جاك طورجو ، بارون دلوان .

وقد رأيناه في صفحات سابقة لاهوتياً ، ومحاضراً في المسيحية والتقدم ، وصديقاً للفزيوقراطيين وجماعة الفلاسفة الفرنسيين ، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً في ليموج . وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام طورجو لأنه كافر سبق أن شارك في « الموسوعة » بمقالاته(٦٧) ، ومع ذلك ففي ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة — وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل طورجو في البحرية جابرييل دسارتين ، الذي أنفق في خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا ، والذي أعتمد على طورجو في تدبير المال اللازم لبنائها .

وكان طورجو رجلا فرنسياً من معدن شبيه بالذي وجده لويس الرابع عشر في كولبير . كرس نفسه لخدمة وطنه ، واتسم ببعد النظر ، والعكوف على العمل بغير ملل ، ونقاء اليد وطهارتها . وكان فارع الطول حسن الصورة ، ولكن أعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات — وإن رحبت

به الآنسة لسبيناس ترحيباً حاراً . وكان قد ضحى بصحته فى سبيل عمله ، وفى كثير من الوقت الذى كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس . وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات فى وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن استيزاره قلق مزعزع . وكان فى السابعة والأربعين حين تقلد وزارته ، وفى التاسعة والأربعين حين فقدها ، وفى الرابعة والخمسين حين ودع الحياة .

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى ، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة ، وبأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة . ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الدينى وتسامحهم ، وثقتهم فى العقل والتقدم ، وأملهم فى إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور . فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة ، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له ، كان هذا ثورة سلمية ، تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التى لا تكتفى بالقضاء على المفاسد بل تطيح بالنظام الاجتماعى ذاته . فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير ، « النظرية الملكية » هذه موضع الاختبار . ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطيين ابتهاجهم بتقلد طورجو زمام الأمر .

وذهب طورجو إلى كومبين فى ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية . وقال له « إننى لا أبذل نفسى للملك بل للرجل الأمين » . وأجاب لويس وهو يأخذ يدى طورجو فى يديه « لن يخيب ظنك »(٦٨). فى مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية فى برنامجه قال :

« لا إفلاس ، معلناً كان أو مقنعاً .

لا زيادة فى الضرائب ، والسبب حالة شعبك . . .

لا قروض ، . . . لأن كل قرض يقتضى فى نهاية أجل مسمى إما الإفلاس وإما زيادة الضرائب . . . »

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد ، وخفضه بقدر يكفى ضمان وفر فى كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة . وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس (٦٩) .

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض ، وأفضت حرب ١٧٧٨ بفرنسا إلى الإفلاس) .

وبعد أن تبين طورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، أمر بشتى ضروب الوفر ، وأصدر تعليمات بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته ، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات ، والإنتاج ، والتجارة ، خطوة خطوة . وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة . وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنباً لتذمر أهل المدن ، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة ، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة ، وحددت سعر الخبز . ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطت همته عن زرع المزيد من الغلال ، وثنت غيره عن الاشتغال بالزراعة ، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع ، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند منبعها . وبدا إصلاح الزراعة فى نظر طورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا . ذلك أن اطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى ، ويزيد قوته الشرائية ، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لا برويير فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى (٧٠) .

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر طورجو من المجلس الملكى مرسوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرجاً . وكان ديون دنمور قد قدم للمرسوم بديباجة

تشرح الهدف منه ، وهو « تنشيط وتوسيع زراعة الأرض ، التى تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضماناً ، والاحتفاظ بوفرة فى الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال من الخارج . . . والقضاء على الاحتكار . . . وإيثاراً للمنافسة الحرة » وهذه المقدمة التفسيرية كانت هى ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأى العام كقوة سياسية . ورحب فولتير بالمرسوم فاتحة لعصر اقتصادى جديد ، وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة (٧١) . ثم أرسل مذكرة إلى طورجو قال فيها : « ان عليل فرنيه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت فى أجله حتى يرى مرسوم ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ . وهو يقدم احترامه لواضعه ، ويرجو له التوفيق »(٧٢) .

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأى معارض ينذر بالسوء . ففى ربيع ١٧٧٥ جاء مصرفى سويسرى يعيش فى باريس ويدعى جاك نكير إلى طورجو يحمل مخطوطاً « عن قانون الغلال وتجارتها » ، وسأل ان كان من الممكن نشره دون اضرار بالحكومة . وقد زعم نكير فى كراسته أن قدراً من الإشراف الحكومى على الاقتصاد لابد منه أن أريد ألا يفضى حذق القلة الفائق إلى تركيز الثروة فى طرف وتكثيف الفقر فى الطرف الآخر ، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معلن . أما طورجو ، الواثق من نظرياته ، والمحبذ لحرية النشر ، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم (٧٣) . فنشره نكير .

ولم تقرأه جماهير المدن ولكنها اتفقت معه فى الرأى . فحين ارتفع سعر الخبز فى ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشغب فى عدة مدن . ففى الأقاليم المحيطة بباريس ، والتى تتحكم فى انسياب الغلال إلى العاصمة ، راح بعض الرجال يتنقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد . وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالمخزون من الغلال فى نهر السين ، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من الهافر إلى باريس ، وفى ٢ مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر فى فرساى .

وأعتقد طورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون البلديون أو الإقليميون الذين فقدوا وظائفهم بانتهاء الإشراف الحكومى والذين كان هدفهم أن يخلقوا فى باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لهيمنتها(٧٤) . وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام ، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه . على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب ، وأمر بخفض سعر الخبز .

ولكن طورجو أكد أن هذا التدخل فى قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها ؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخابز ستهبط بأسعار الخبز عما قليل . وألغى الملك أمره بخفض السعر . وفى ٣ مايو تجمعت حشود غاضبة فى باريس وبدأت تنهب المخابز . وأمر طورجو مليشيا باريس بحماية المخابز ومخازن الغلال ، وبإطلاق النار على أى شخص يحاول القيام بأعمال عنف . ثم حرص فى الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق . وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزونهم ، فانخفض سعر الخبز . وهدأ التمرد . وقبض على نفر من زعمائه ، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس . وخرج طورجو ظافراً من « حرب الدقيق » هذه . ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز ، وأحزنه شنق هذين الشخصين فى ميدان جريف .

ولكن سرته الإصلاحات التى يجريها طورجو فى مالية الحكومة . فلم يمض يوم على مرسوم الغلال حتى بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر للوفر فى مصروفات الدولة ، ولتحصيل الضرائب تحصيلا أكثر كفاءة ، وللإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين ، ثم بنقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة ، ومركبات البريد ، وصنع البارود ، إلى الدولة . واقترح ، ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء« بنك للخصم » وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية ، وتلقى الودائع ، وإعطاء القروض ، وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند ابرازه . وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذى نظمه نابليون فى ١٨٠٠ . فلم تحل نهاية عام ١٧٧٥

حتى كان طورجو قد خفض المصروفات ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأنقص الفائدة على الدين الأهلى من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة ، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتى عشرة فى المائة . وأوشك أن يوازن الميزانية ، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد ، والإسراف ، وعدم الكفاءة ، وكثرة الفاقد .

فى هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق طورجو كبير عون من موريبا ، ولكنه لقى العون الكثير من كرتيان وماليرب ، الذى التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو . فقد أرسل ، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التى تختص بالضرائب غـــير المباشرة) ، إلى لويس السادس عشر (٦ مايو ١٧٧٥) ، مذكرة تشرح المظالم التى ينطوى عليها جمع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين ، وتحذر الملك من الكراهية التى يولدها استخدامهم . وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها ، وقال « ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة » وتعلق قلب الملك بماليرب ، فعينه وزيراً لبيت الملك (يوليو ١٧٧٥) وحث هذا اللبرالى المسن لويس على تأييد طورجو ، ولكنه نصح طورجو بألا يحاول الإسراف فى إصلاحاته فى وقت واحد ، لأن كل إصلاح سيخلق له أعداء جدداً . وأجاب مراقب المالية العام . وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أن حاجات الشعب هائلة ، ونحن فى أسرتى نموت بالنقرس فى الخمسين» (٧٥) .

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ طورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك ، قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال باريس ، وألغى العدد الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة ، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه . وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم ، فاغتبط الفلاحون . وألغى الرابع السخرة — وهى أيام اثنا عشر أو خمسة عشر يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين كل عام

لصيانة الكبارى ، والقنوات ، والطرق ؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية ؛ واغتبط الفلاحون ، وشكا النبلاء . وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك .

« إننا لو استثنينا عدداً قليلا من الأقاليم ... لوجدنا أن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شطر من رعايانا . فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً . أما الذين يهتمون بها حقاً فهم ملاك الأرض ، وكلهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات ، وإملاكهم تزداد قيمتها بشق الطرق . فإذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق ، وإذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر ، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء »(٧٦) .

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم ، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقية » .

« إننى رغم عدائى للاستبدادية الآن كما كنت دائماً ، فانى لن أنى عن أن أقول للملك ، وللبرلمان ، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر ، أن هذا أمر من تلك الأمور التى يجب أن تقررها إرادة الملك المطلقة ، ولهذا السبب : وهو ان هذه القضية هى فى صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء . والآن ممن يتألف البرلمان ؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب ، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة . ثم البلاط ، الذى يشتد فى احتجاجه — ممن يتألف ؟ من كبار النبلاء ، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة ... ونتيجة لذلك فلا اعتراض البرلمان ... ولا حتى تذمر الحاشية يجب أن ينال من القضية على أى وجه ... ومادام الشعب لا صوت له فى البرلمانات ، فإنه لا بد أن يرى الملك فى القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمانات ، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب ، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته »(٧٧) .

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية . وكانت قد أصبحت

أرستقراطية عمالة ، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً ، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معامى الحرف . وقد عطلت الاختراع ، وعرقلت التجارة بالمكوس أو بحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها . وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة — وهم رجال يوفرون المبادأة ، ورأس المال ، والتنظيم ، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل ، سواء من المنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم ، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم — هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة . أما طورجو ، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع ، والمشروعات ، والتجارة ، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية . وقد جاء فى ديباجة هذا المرسوم :

«كانت ممارسة الحرف والصنائع فى جميع المدن تقريباً مركزة فى أيدى عدد قليل من المعلمين المتحدين فى نقابات ، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التى ينفردون دون غيرهم بامتيازها . فالذى كرس نفسه لأى صناعة أو حرفة لم يكن فى استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة ، التى لاسبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة مملة لا حاجة إليها ، وبعد أداء ابتزازات متكاثرة تحرمه من جزء من رأس المال الضرورى لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة . أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فمصيرهم العيش القلق تحت سلطان المعلمين ، ولا خيار أمامهم إلا الحياة فى ضنك . . . أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد لاجنبى »[٧٨] .

وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر علمنا . ولكن طورجو استرسل فى إجراءاته فحظر على جميع معلمى الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أى اتحاد أو جمعية[٧٩] . لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة ، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد فى قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين . وقد أحس أن كل الطبقات

ستفيد فى المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات . وأعلن أن جميع الأشخاص فى فرنسا — حتى الأجانب — أحرار فى الاشتغال بأى صناعة أو تجارة .

وفى ٩ فبراير ١٧٧٦ رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس . فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة ، ورفض الموافقة على تسجيل الباقى ، وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية[٨٠] . وبهذا القرار الذى اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حليف طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم ، وهو الذى زعم من قبل أنه حامى الشعب من الملك . ودخل فولتير المعمعة بكراسة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت طورجو ، فأمر البرلمان بمصادرة الكراسة . ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان ، فوبخهم لويس فى لحظة ثبات وجلد قائلا « أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيرى وغير مسيو طورجو »[٨١]. وفى ١٢ مارس دعا البرلمان إلى « سرير عدالة » (وهو المجلس القضائى العالى (فى فرساى ، وأمره بتسجيل المراسيم . واحتفلت مواكب من العمال بانتصار طورجو .

وأبطأ المراقب العام خطو ثورته بعد أن أرهقته الأزمات المتكررة . فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النبيذ (ابريل ١٧٧٦) لم يشك غير المحتكرين . ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية . وأصدر تعليماته إلى ديون دنيمور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية فى كل أبرشية ، يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستمائة جنيه أو يزيد ، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين فى مجلس كنتونى ، تنتخب ممثلين فى مجلس إقليمى ، ينتخب نواباً فى مجلس الأمة . وكان طورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديمقراطية ، فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف استشارية وإدارية ، أما السلطة التشريعية فتظل فى يد الملك وحده ، ولكن عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها . كذلك قدم طورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذى لابد منه للمواطنة المستنيره . وقال : « مولاى ، إننى أجرؤ على التأكيد بأنه لن تمضى سنتان حتى تتبدل أمتك فلا تتعرف عليها الأمم ، وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة . .

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى »[٨٢] ولكن الوزير أعوزه الوقت ، والملك أعوزه المال ، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود .

وكانت مراسيم طورجو — وديباجاتها — قد ألهبت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة ، الذين زكوا فى ظل الحرية الجديدة . والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال ، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية . ومع ذلك عارضه بعض التجار سراً لأنه تدخل فى احتكاراتهم . وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض ، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء . وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقضه . ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافراً ينذر أن يختلف إلى القداس ، ويدافع عن الحرية الدينية . وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة . وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ . وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم ، ومعاشاتهم ، ووظائفهم الفخرية . أما موريبا ، وهو الأعلى منه منصباً فى الوزارة ، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين . وكتب السفير السويدى يقول « إن طورجو يجد نفسه الهدف لحاف رهيب جداً »[٨٣] .

أما مارى أنطوانيت فقد رضيت عن طورجو أول الأمر ، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته . ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) اسرافها فى الثياب والعطايا . ولم يخف طورجو فزعه من مطالبها من الخزانة ، وكانت الملكة إرضاء لآل بولنياك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيراً لفرنسا فى لندن ؛ وهناك دخل فى معاملات مالية مشبوهة . وانضم طورجو إلى فرجين فى الإشارة على الملك باستدعائه ؛ وأقسمت الملكة لتنتقمن منه .

وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى . ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة ، وطبقة النبلاء ، وحتى البرلمانات ،

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد وتقدست بمرور الزمن ، فإقلاقها معناه خلخلة ركائز الدولة ؛ ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها . فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال ؟ وشكا لويس سراً من وزيره : « إن أصدقاءه فقط هم الأكفاء ، وأفكاره فقط هى الصائبة »(٨٤) . وفى كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارته على المراقب العام . فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس ، عاد إلى منزله وكتب إلى الملك (٣٠ ابريل ١٧٧٦) رسالة كانت الفاصلة فى مصيره :

« مولاى : ان أخفى عنكم أن قلبي مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت جلالتكم يوم الأحد الماضى . . . ذلك أنى ما كنت لاستصعب أمراً من الأمور مادمت أؤمل الاحتفاظ بتقدير جلالتكم لصواب ما أفعل . واليوم أى جزاء ألقى ؟ أن جلالتكم ترون كم يستحيل على المضى فى طريقى قدماً ضد من يؤذوننى بالشر الذى يصنعونه بى ، وبالخير الذى يمنعوننى من فعله بتعطيل جميع إجراءاتى ، ومع ذلك فإن جلالتكم لا تمنحوننى عوناً ولا عزاء . وأنا أجرؤ يا مولاى على القول بأننى لا أستحق هذا الجزاء . . .

« إن جلالتكم . . . قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة . وأنا عليم بأنكم وأنتم فى الثانية والعشرين ، وفى منصبكم هذا ، لا تملكون المرانة على الحكم على الرجال ، وهى مرانة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط المعتاد مع نظرائهم ؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع ، بعد شهر ؟ وألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم هذه الخبرة البطيئة ؟ .

« مولاى ، إننى مدين لمسيو موريبا بالمنصب الذى قلدتمونى إياه ، ولن أنسى له هذه اليد ما حييت ، ولن أقصر أبداً فى الاحترام الواجب له . ولكن أتعلمون يا مولاى مبلغ ضعف شخصية المسيو دموريبا ؟ — وكم تسيطر عليه أفكار من يلتفون حوله . إن الناس كلهم يعرفون أن مدام دموريبا ، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها ، توحى إليه دائماً

بإرادتها . . . وهذا الضعف هو الذى يدفعه إلى الموافقة دون تردد على سخط الحاشية على ، والذى يجردنى من كل سلطة تقريباً فى إدارتى . . .

« مولاى ، لاتنس أن الضعف هو الذى أطاح برأس تشارلز الأول على المقصلة . . . والذى جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً ، . . . والذى جر على الحكم السالف كل ويلاته . . مولاى ، إنهم يعدونك ضعيفاً ، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون فى خلقك هذا العيب ، ومع ذلك رأيتك فى مناسبات أكثر من هذه عسراً تبدى شجاعة أصيلة . . . ان جلالتكم لن تستطيع الاستسلام لإرضاء مسيو دموريا دون أن تكون غير صادق مع نفسك . . . » (٨٥) .

ولم يرد الملك على هذه الرسالة . فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين موريبا وطورجو ، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً لإرادته . وعليه ففى ١٢ مايو ١٧٧٦ أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقيل . وفى اليوم ذاته ، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بولنياك ، رفع الكونت دجين إلى مرتبة الدوقية . فلما سمع مالبرب بإقالة طورجو قدم استقالته . وقال له لويس « إنك رجل محظوظ . ليتنى أنا أيضاً أستطيع ترك منصبى »(٨٦) . وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم . وصعقت ماريا تريزا لهذه التطورات ، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط طورجو نذير بانهيار فرنسا(٨٧) ، وقد أحزنها الدور الذى لعبته ابنتها فى الأمر ، وأبت أن تصدق تنصل الملكة من التبعة ، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول : « لم يبق لى إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو »(٨٨) .

أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس ، يدرس الرياضة ، والفزياء ، والكيمياء ، والتشريح . وكان يلتقى كثيراً بفرانكلن ، وقد كتب له « مذكرة فى الرسوم » ثم اشتدت عليه وطأة النقرس حتى أكرهه بعد ١٧٧٨ على الاستعانة بعكازين فى مشيه . ومات فى ١٨ مارس ١٧٨١ بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل . ولم يدر بخلده أن القرن التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويطبقها . وقد أجمل مالبرب وصفه فى حب فقال : « كان له رأس فرانسيس بيكن ، وقلب لوبيتال »(٨٩) .

٦ — وزارة نكير الأولى : ١٧٧٦ — ٨١

خلف طورجو فى رقابة المالية كلونى دنوى ، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية ، ولم ينفذ مراسيم الغلال . . وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة فى المائة ، ولم يكتشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يا نصيب قومى (٣٠ يونيو ١٧٧٦) . فلما مات كلونى (أكتوبر) ، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفاء نقاد طورجو .

كان جاك نكير بروتستنتيا ، ولد فى جنيف عام ١٧٣٢ وأرسله أبوه — وكان أستاذاً للقانون فى أكاديمية جنيف — إلى باريس ليعمل كاتباً فى مصرف اسحاق فرنيه . فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير بعض المال ليفتتح مصرفاً خاصاً به . وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسرى آخر ، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة فى الغلال . وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً ، محترماً ، عزباً . ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً ، وفرصة للخدمة الممتازة والشهرة القومية ، وهذا يقتضيه زوجة وبيتاً يكون نقطة ارتكاز ، أو قاعدة عمليات . ومن ثم تودد إلى المركيزة فرمنو الأرملة ، فرفضته ، ولكنها جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التى كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدورد جبون . ووقع نكير فى غرام سوزان ، وتزوجها فى ١٧٦٤ . ويعد وفاؤهما المتبادل طوال حياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء فى مشكال ذلك العصر المضطرب . وأقاما بيتاً فوق مصرفه ، وهناك أفتتحت صالوناً (١٧٦٥) دعت إليه الكتاب ورجال الأعمال ، أملا فى أن تعبد هذه الصداقات طريق زوجها وتنيره .

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف ، فبدأ فى ١٧٧٣ بكتابة « مديح لكولبير » الذى توجته الأكاديمية الفرنسية . واعتزل الآن عمله ودخل المعترك السياسى بذلك المقال « فى قانون الغلال » الذى عارض سياسة طورجو فى

عدم التدخل الحكومى . وظفر الكتيب بثناء ديدرو ، الذى لعله استمتع بفقرة تكلم فيها المؤلف كما يتكلم الاشتراكيون ، وكان قد قرأ روسو . وقد هاجم نكير :

« قوة الطبقة المالكة التى تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس أجر لايكاد يكفى لغير الحاجات الماسة . . . إن كل المؤسسات المدنية تقريباً أقامها الملاك . ولنا أن نقول إن قلة من الناس — بعد أن قسموا الأرض فيما بينهم — شرعوا القوانين تكتلا وضماناً لهم ضد الكثرة . . . ولهؤلاء أن يتساءلوا . « أى معنى تعنيه لنا قوانين الملكية التى شرعتموها ؟ — فنحن لانملك أملاكاً ؛ أو قوانينكم فى العدالة ؟ — فنحن لا نملك شيئاً ندافع عنه . أو قوانينكم فى الحرية ؟ — فإننا سنموت جوعاً إن لم نعمل غداً »[٩٠] .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكير « مديراً للخزانة الملكية » بناء على تزكية موريبا . وكان تعييناً يشوبه الاعتذار . فقد احتج بعض الأساقفة على السماح لبروتستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة ، فأجاب موريبا ، « فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة »[٩١] . وستراً لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقباً عاماً للمالية له الرآسة الإسمية على نكير . وتضاءلت معارضه الاكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً . وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو ، وعين نكير مديراً عاماً للمالية . وقد رفض أن يتقاضى راتباً ، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص[٩٢] . ولكنه ظل محروماً من لقب الوزير ، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكى .

وقد وفق فى حدود خلقه وسلطته . ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة ، وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال . وقد أرسى فى الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفراً أفضل ، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة . وإذ كان حائزاً على ثقة المجتمع المالى ، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

الخزانة ١٤٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عام واحد . ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة ، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب ، وحسن المستشفيات ، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء المال بفائدة منخفضة ، وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط ، والبيت الملكي ، والملكة . ورد إلى الملتزمين العموميين جمع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) ، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق . وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى ، وجرينوبل ، ومونتوبان ، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنتظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوين لممثلى النبلاء والاكليروس مجتمعين . على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس ، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية . وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية ، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه . فلما رفضوا أشار نكير عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا ، مع دفع التعويضات للسادة ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغاً يعسر معه إلغاؤه بمرسوم (٩٣) . وفى ١٧٨٠ ، وتحت إلحاح نكير أيضاً ، أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى ، وإلغاء السجون السفلية ، وفصل السجناء الذين جرموا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد ، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين . هذه وغيرها من انجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً . فإذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما أعمله ، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقى اللوم على تعجله والاستكثار من الأعداء فى وقت واحد . وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلا من جمع الضرائب ، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما يكفى .

وقد أحسنت مدام كمبان تلخيص موقف الملك من وزرائه ، وهى اللصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة « لقــد حكم طورجو ، ومالبرب ، ونكير، بأن هذا الملك المتواضع البسيط فى عاداته ، لن يتردد فى التضحية بحقه الملكى فى سبيل عظمة شعبه الحقيقية ؛ لقد كان قلبه ينعطف به نحو

الإصلاح ، ولكن تحيزاته ومخاوفه ، ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً ، وأكرهته على التخلي عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب»[٩٤] . ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول في إعلان عام (١٧٨٠) لعل نكير كان قد أعده له ، إن « الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا . . وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر الرعايا الباقين . « وأعرب عن آماله في ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم ، بعد أن يردوا إلى المستوى العام (للضرائب) ، أن يؤدوا الفروض التي كان لابد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة »[٩٥] . وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير ، ولكن روحه التحررية شكلها على غير وعي منه ذلك العمل الذي قام به فولتير ، وروسو ، وجماعة الفلاسفة بوجه عام لفضح المفاسد القديمة ولبعث الحياة الجديدة في المشاعر الإنسانية التي ارتبطت من قبل بالمسيحية . في هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر اصلاحات كان خليقاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تتفادى الثورة . ثم إنه في عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التي سلبتها انجلترا ممتلكاتها وأذلتها في عهد أسلافه — تكيل الضربات بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور ، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا .

٧ — فرنسا وأمريكا

اتفقت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية . فمؤلفات فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ورينال ، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسي لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكري ، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين — كواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن — أبناء للتنوير الفرنسي . ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦) ملتمساً قرضاً للمستعمرات الثائرة ، كان الرأي العام الفرنسي شديد التعاطف معه ، وراح بومارشيه في تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مديد المعونة لأمريكا .

وكان فرجين نبيلا يؤمن بالملكية والاستقراطية ، ليس بينه وبين

الجمهوريات أو الثورات ود ، ولكنه كان تواقاً للثأر من انجلتره لفرنسا ، غير أنه لم يرض بالموافقة على أى معونة سافرة لأمريكا ، لأن البحرية البريطانية كانت لاتزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقة عليها سارتين ، وكان فى مقدورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار على الملك بالإذن ببعض المعونة السرية ، وحجته أن بريطانيا او سحقت الثورة لخلص لها فى أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والإسبانية فى البحر الكاريبى . أما إذا أمكن المطاولة فى الثورة ، فإن فرنسا ستقوى ، وانجلتره تضعف ، وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها . أما لويس فكان يرتعد فرقاً لفكرة تقديم المعونة لثورة ما ، وحذر فرجين من أى عمل سافر قد يفضى إلى حرب مع انجلتره (٩٦) .

وفى ابريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول :

« سنعطيك سراً مليوناً من الجنيهات ، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا . (وقد حصلوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية ، وتزود الأمريكيين على مسئوليتك بالسلاح والذخيرة والأجهزة ، وسائر الأشياء التى يحتاجون إليها لمواصلة الحرب . وستسلمك ترسانتنا السلاح والذخيرة ، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها . وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين ، لأنهم لايملكون المال ، ولكن أطلب مقابلا غلات أرضهم ، التى سنساعدك على بيعها فى هذا البلد »(٩٧) .

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخمسة وعشرين ألف رجل ، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قراصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم . وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦) . فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية ، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية ، استقبلته جماعة الفلاسفة بحماسة وفرح ، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من « العقد الاجتماعى » .

وفى سبتمبر عين الكونجرس الأمريكى . بنيامين فرانكلين وآرثر لى — ليمضيا إلى فرنسا مندوبين ، وينضما إلى دين ، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد فحسب ، بل التحالف السافر ان أمكن .

ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين فى أوربا . ذلك أنه فى ١٧٢٤ ذهب إلى انجلترة ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة ، وقد اشتغل طباعاً ، ونشر دفاعاً عن الألحاد (٩٨) ، وعاد إلى فيلادلفيا والربوبية ، وتزوج ، وانضم إلى جماعة الماسون ، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالماً . وفى ١٧٥٧ أوفد إلى انجلترة ممثلا لمجلس بنسلفانيا فى نزاع ضرائبى . ومكث فى انجلترة خمس سنين ، والتقى بجونسن وغيره من وجوه القوم ، وزار أسكتلنده ، والتقى بهيوم وروبرتسن ، ونال درجة من جامعة سانت أندروز ، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلن . ثم عاد إلى انجلترة من ١٧٦٦ إلى ١٧٧٥ ، وخطب فى مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة ، وحاول المصالحة ، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة . وقد شارك فى صياغة إعلان الاستقلال .

وصل فرانكلين إلى فرنسا فى ديسمبر ١٧٧٦ ومعه حفيدان له ، وكان الآن فى السبعين ، يبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة ، والعالم كله يعرف ذلك الرأس الضخم والشعر المشتعل الخفيف ، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه المشرق . وأهال عليه العلماء أسباب التكريم ، وادعى الفلاسفة والفزيوقراطيون أنه واحد منهم ، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناتوس ، وسكيبيو الأفريقى ، والكاتونين ، وقد بعثوا من مراقدهم ، وصففت نبيلات باريس شعورهن فى لمة مجعدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس ؛ ولا ريب أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة . وأذهلت الحاشية بساطة عاداته ، ولباسه وحديثه ، ولكن بدلا من أن يبدو مضحكاً فى زيه القريب من زى الريفيين ، كان اختيالهم فى المخمل والحرير والمخرم هو الذى تبدى الآن كأنه محاولة فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب . ومع ذلك قبلوه هم أيضاً ، لأنه لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية ، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم ، وأظهر

الوعى الكامل بالمصاعب والحقائق . وكان يدرك أنه بروتستنتى ، ربوبى ، جمهورى ، يطلب العون من بلد كاثوليكى وملك تقى .

وقد باشر مهمته فى حذر وحيطة . فلم يغضب أحداً ، وأبهج كل إنسان . وقدم فروض الاحترام لا لفرجين فقط بل لميرابو الأب ولمدام دودفان ، ولمع رأسه الأصلع فى الصالونات وفى أكاديمية العلوم . وشرف نبيلا شاباً هو الدوق دلاروشفوكو أن يكون سكرتيره . وكانت الجموع تجرى وراءه حين يظهر فى الشوارع . ولقيت كتبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت « أعمالا كاملة » وطبع من كتاب واحد « تقويم وتشرد المسكين » ثمانى طبعات فى ثلاثة أعوام . واختلف فرانكلين إلى محفل « النوف سير » الماسونى ومنح العضوية الفخرية ، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا فى حلف مع أمريكا . ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة . وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر وليم هاو ، وبدا أن معنوية الجيش تحطمت . وبينما كان فرانكلن ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام فى باسى ، وهى إحدى ضواحى باريس اللطيفة ، وراح يدرس ، ويفاوض ، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة ، ويستضيف طورجو ، ولافوازييه ، وموريلليه ، وكابانى ، ويغازل مدام دودتو فى سانوا ومدام هلفتيوس فى أوتوى ، ولا عجب فقد كان فى هاتين المرأتين فتنة جعلتهما جذابتين بغض النظر عن تقدمهما فى العمر .

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات ، وضباط الجيش الفرنسيون يتطوعون للقتال تحت إمرة واشنطن . كتب سيلاس دين فى ١٧٧٦ « تتكاثر على تكاثراً رهيباً طلبات الضباط الراغبين فى الذهاب إلى أمريكا . . . ولو كان لدى عشر سفن هنا لملأتها كلها بركاب لأمريكا »(٩٩). والعالم كله يعرف كيف ترك المركيز لافاييت ، البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، زوجة مخلصة حبلى ليرحل (ابريل ١٧٧٧) ويقاتل بلا راتب فى جيش المستعمرات . وقد اعترف لواشنطن قائلا « إن الشيء الوحيد الذى أتعطش إليه هو المجد »(١٠٠)، وفى سبيل المجد أقتحم كثيراً من المخاطر وألواناً من الهوان ، وجرح فى براند يواين ، وشارك فى أهوال فالى فورج . وظفر بالمحبة الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود .

وفى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندى بريطانى وثلاثة آلاف مرتزق ألمانى قادمين من كندا فى ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام . فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكى فرنسا وجدت مطالبة فرانكلين ، ودين ، ولى ، بابرام حلف قبولا أكثر بين مشيرى الملك . غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التى قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب . إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التى بذلها على مضض حين حذراه من أن انجلتره — التى كانت عليمة منذ زمن طويل بالعون الفرنسى لأمريكا ومستاءة منه — قد تبرم صلحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا . وعليه ففى ٦ فبراير ١٧٧٨ وقعت الحكومة الفرنسية معاهدتين مع « ولايات أمريكا المتحدة » أرست إحداهما علاقات التجارة ، والمعونة ، واشترطت الأخرى سراً أن ينضم الموقعان فى الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها انجلتره الحرب ، ولا يبرم طرف صلحاً دون موافقة الآخر ، ويواصل كلاهما قتال انجلتره حتى يتحقق استقلال أمريكا .

وفى ٢٠ مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين ، ولبس فرانكلن جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة . وفى ابريل وصل جون آدمز ليحل محل دين ، وأقام مع فرانكلن فى باسى ، ولكنه وجد الفيلسوف العجوز فى شغل بالنساء عن مهامه الرسمية . فتشاجر معه ، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا ، ففشل ، وعاد إلى أمريكا . وعين فرانكلين وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر ١٧٧٩) . وفى ١٧٨٠ ، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين ، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة .

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير . فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التى أقرضتها فرنسا لأمريكا : مليون جنيه فى ١٧٧٦ ، وثلاثة ملايين أخرى فى ١٧٧٨ ، ومليوناً آخر فى ١٧٧٩ ، وأربعة فى ١٧٨٠ ، وأربعة فى ١٧٨١ ، وستة فى ١٧٨٢[101]. وبدأ مفاوضات

obeikandi.com

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر ١٧٧٩) أملا فى العثور على صيغة للصلح[١٠٢] . وكان عليــه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها ، وبحريتها ، وبلاطها . وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفيين والشعب ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[١٠٣] . وقد لاطف الأكليروس حتى أقرضوه أربعة عشر مليوناً ، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام. وظل يرفض فرض ضرائب ، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً ، وسيشكو من خلفوه فى منصبه من أنه ألقى على عاتقهم هذه الضرورة التى لامحيص عنها . وقد حاباه الماليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التى طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة ، أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق .

ورغبة فى تنمية الثقة فى المجتمع المالى ، نشر نكير بموافقة الملك فى يناير ١٧٨١ « تقريراً مقدماً للملك » هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها ، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات « غير العادية » ، وإغفاله الدين القومى . وأقبل الجمهور على شراء « التقرير » بمعدل ثلاثين ألف نسخة فى إثنى عشر شهراً . وحيا الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس . وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير « إعجابها الذى لاحد له بكتابه ومواهبه »[١٠٤] . غير أن البلاط غضب لأن « التقرير المقدم للملك » فضح الكثير جداً من مفاسد الماضى المالية ، وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التى تدفعها الخزانة . وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مديحاً للوزير بقامه ، وغار موريبا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره فى التوصية بإقالته . أما الملكة فدافعت عنه وان ساءتها إجراءات الوفر التى اتخذها ، ولكن فرجين سماه ثائراً[١٠٥] . واشــترك النظار الملكيون فى اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية . وعمل نكير ذاته على سقوطه بتصريحه بأنه سيستقيل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كاملاين مع كرسى فى المجلس الملكى ، وقال موريبا للملك أنه لو أجيب نكير إلى طلبه هذا

لتخلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم . واستسلم لويس ، وأخلى سبيل نكير (١٩ مايو ١٧٨١) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط . وبعث يوزف الثانى بعزائه ، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا(١٠٦).

وفى ١٢ أكتوبر ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد انجلتره . وأوشك الأسطولان الفرنسى والإسبانى المجتمعان ، ببوارج مجموعها ١٤٠ ، أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها ١٥٠(١٠٧) ، وقطعاً على بريطانيا سطوتها على البحار . وقد أثر هذا التغيير فى ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً فى الحرب الأمريكية . ذلك أن الجيش البريطانى الرئيسى فى أمريكا ، وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس ، احتل موقعاً حصيناً فى يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزابيك . وكان لافاييت برجاله الخمسة آلاف وواشنطن برجاله الأحد عشر ألفا (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسى تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة . وفى ٥ سبتمبر ١٧٨١ هزم أسطول فرنسى بقيادة الكونت دجراس أسطولا انجليزياً صغيراً فى الخليج ، ثم أغلق كل مهرب مائى على قوة كورنواليس الأقل عدداً . فلما استنفد كورنواليس ذخيرته استسلم هو وجميع رجاله (١٩ أكتوبر ١٧٨١) . واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس ، ولافاييت ، ورشامبو قد لعبوا أدواراً كبرى فى ذلك الحدث الذى تبين أنه الفاصل فى الحرب .

وطلبت انجلتره الصلح . وأوفد شلبيرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكان فى فرنسا ، آملا أن يثير أحد الحليفين على الآخر . وكان فرجين (١٧٨١) قد فكر من قبل فى الصلح مع انجلتره على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين انجلتره وفرنسا وأسبانيا(١٠٨) ، وبدأ تفاهماً مع أسبانيا ليبقى وادى المسسبى تحت السيطرة الأوربية(١٠٩) . وفى نوفمبر ١٧٨٢ اقترح تأييد الانجليز فى سعيهم لأقصاء الولايات الأمريكية من مصايد الأسماك النيوفوندلندية(١١٠) . وكانت هذه المفاوضات متفقة تماماً مع السوابق الدبلوماسية ، ولكن المبعوثين الأمريكيين أحسوا حين

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية . واتفق فرجين وفرانكلن على أن لكل حلف أن يتعامل مع انجلتره مستقلا عن الآخر ، على ألا يوقع طرف أى معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر (١١١) .

أما المفاوضون الأمريكان — خصوصاً جون جاى وفرانكلن — فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة ، فلم يكسبا للولايات المتحدة الاستقلال فحسب ، بل حق استعمال المصايد النيوفوندلندية ، ونصف البحيرات العظمى ، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الليجانى والمسسبى ، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكى الحصول عليه . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ وقع جاى ، وفرانكلن ، وآدمز ، معاهدة تمهيدية مع انجلتره ، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين ، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم انجلتره الصلح مع فرنسا . وشكا فرجين ، ثم قبل الوضع . وفى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ وقعت المعاهدة النهائية « باسم الثالوث الأقدس غير المنقسم » (١١٢) — بين انجلتره وأمريكا فى باريس ، وبين انجلتره وفرنسا وأسبانيا فى فرساى . وبقى فرانكلن فى فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى ١٧٨٥ . فلما قضى نحبه فى فيلادلفيا (١٧ ابريل ١٧٩٠) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام .

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة . فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات ، وكانت الفائدة على الدين القومى تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد . على أن ذلك الدين كان مشكلة بين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر فى الشعب ، الذى أثرى كثير من أفراده بفضل تنشيط الصناعة . وقد أوذيت الملكية — لا الأمة — أذى بليغاً . وإلا فكيف يستطيع التاريخ تعليل النجاح الذى ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوربا من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ ؟

لاريب فى أن روح فرنسا قد رفعت . فقد رأى رجال الدولة فى صلح

١٧٨٣ بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام ١٧٦٣ . أما جماعة الفلاسفة فقد هللوا للنتيجة ورأوها انتصاراً لآرائهم ، والحق ، كما قال توكفيل « ان الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا »[١١٣] . ورأى الكثير من الفرنسيين فى الإنجاز الذى حققته المستعمرات إرهاصاً يبشر بانتشار الديمقراطية فى أوربا كلها . وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستقراطية والبرلمانات . وأصبح إعلان الحقوق الذى أصدره مؤتمر فرجينيا الدستورى فى ١٢ يونيو ١٧٧٦ ، وقانون الحقوق الذى ألحق بالدستور الأمريكى ، من بعض الوجوه نموذجين حذا حذوهما إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الجمعية التاسيسية الفرنسية فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ .

ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعية ، وأوج فروسيتها ، أن تموت وهى تعين على إرساء دعائم الديمقراطية فى أمريكا . صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها . غير أن حماسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت حقيقية لأمراء فيها . فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة فى سبيل الدولة الوليدة . كتب الكونت سيجور الشاب يقول « لم أكن قط الوحيد الذى خفق قلبه لصوت استيقاظ الحرية وهى تكافح للتخلص من السلطة الاستبدادية »[١١٤] . ونزول النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية فى الجمعية التأسيسية (٤ أغسطس ١٧٨٩) صور ومهد له هنا سلفاً . لقد كان ضرباً باسلا من الهارا — كيرى ، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا ، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة قوية للحرية .

* * *